أزمة الحضار المعاصرة وسبل معالجتها

الدكتور سالم أحمد محل

نشر في كتاب

الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

(سلسلة مشروعات ثقافية)

مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى

1421 هـ /2000م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان
1439 / مايو 2018

أزمة الحضارة المعاصرة وسبل معالجتها

الدكتور سالم أحمد محل(*)

> أعتقد أن اتصالنا بالمجتمعات العربية والإسلامية، التي حافظت على تلك الروح الإنسانية التي فقدناها، سينقذنا من مغبات حضارتنا، وسيكون مفيدًا لنا جدًا.
> شارل ديجول

هذا البحث هو قراءة غربية-إسلامية في أزمة الحضارة المعاصرة. فقد شخص أزمات هذه الحضارة عدد من المفكرين الغربيين، كما كان لبعض المفكرين المسلمين حضور في تحديد معاناة هذه الحضارة وأزماتها التي تحيط بها والتي تهدد كيانها بالتحلل والانهيار. كما حاولنا تحديد سبل معالجتها من منظور إسلامي. وقد ارتأينا أن نقسم البحث لتسهيل معالجته إلى الفقرات التالية:

1- هل هناك حقًا أزمة حضارية معاصرة؟

2- ما ملامح هذه الأزمة؟

3- وماذا يستطيع الإسلام أن يقدم من حلول لمعالجة هذه الأزمة؟

1- هل هناك حقًا أزمة حضارية؟

نعم.. هل هناك أزمة حضارية تتوعد الحضارة المعاصرة وتهددها بالدمار،

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة صنعاء (اليمن).

أم أننا نحن المسلمين نفترض وجود مثل هذه الأزمة داخل بنيان الحضارة الغربية لكي نبرر حاجة هذه الحضارة إلى قيمنا ومثلنا ومبادئنا -نحن المسلمين- فنتنقّص من قيمة هذه الحضارة ومن ريادتها العالمية، فنبخس إنجازاتها واكتشافاتها مظهرين قزميتها أمام عبقرية حضارتنا الإسلامية؟

إن الشواهد التي جاءت في كتابات بعض المفكرين الغربيين عن حضارتهم تبين -أو قد بينت فعلاً- وجود أزمة حضارية، بل وأزمة شاملة. وبهذا فإن القول بوجود هذه الأزمة الحضارية هو ليس طرحًا إسلاميًا؛ وإنما هو طرح غربي شخصه مفكرون غربيون ينتمون إلى تلك الحضارة، ويحملون هويتها، وينعمون بإنجازاتها، ويكتوون بنيرانها وإحباطاتها المتعددة والمتنوعة.

لقد شخص كارل ماركس (1818-1883م) أزمة الحضارة الغربية في المجال الاقتصادي، وانتقد بشدة جشع الرأسماليين واستغلالهم للعمال، وتنبأ بوقوع بطالات دورية تشل الاقتصاد الرأسمالي وتجعله دائمًا يترنح نتيجة المنافسة بين المنتجين.

واقترح ماركس تأميم وسائل الإنتاج جميعًا، وطبقت نظريته في روسيا بعد نجاح ثورتها عام 1917م وظهور الاتحاد السوفياتي مطبقًا نظرية ماركس في الاقتصاد، ومتنكرًا لله سبحانه وتعالى، ومعلنها حربًا على الأديان.

غير أن الماركسية لم تأت بحل يخلص الحضارة الغربية من أزمتها، بل أضافت لها أزمة أخرى جديدة عندما ألغت الحرية الفردية في العمل، وفرضت حالة من الاستبداد السياسي والقهر الجماعي باسم العمال والفلاحين، وفرضت هالة من القداسة الزائفة والكاذبة على دكتاتورية الدولة باسم الثورية والتقدمية.

وجاء أزوالد اشبنكلر (1880-1936م)، ودرس الحضارات ومنها حضارته الغربية، فألف كتابه الذي يشير عنوانه إلى المأزق الذي تعيشه الحضارة الغربية وسماه:

(تدهور الحضارة الغربية).

ثم جاء توينبي (1889-1975م)، ليؤكد وجود هذ الأزمة وأن الأخطار تتهدد هذه الحضارة عن طريق حرب نووية مدمرة[1].

أما جوزيف أ.كاميليري فقد ألف كتابه: (أزمة الحضارة)[2] ليضيف تأكيدًا آخر على عمق الأزمة التي تكتنف الحضارة الغربية.

كذلك فإن دراسة روجيه غارودي للحضارة الغربية وتحليل أزماتها من خلال كتابه (وعود الإسلام) إضافة أخرى في ميدان تأكيد أزمة الحضارة الغربية المعاصرة، بالإضافة إلى ما كتبه الكسيس كاريل وغيره من المفكرين الغربيين تأكيد لا يقبل الشك على تخبط هذه الحضارة في أزماتها وحاجتها إلى من يأخذ بيدها إلى بر الأمان.

2- ملامح الأزمة الحضارية

لقد افتقدت الحضارة المعاصرة عنصرًا حيويًا من عناصر بقائها عندما فرطت بالجانب الروحي وركضت ولهثت وراء الجوانب المادية فقط. فخلقت بذلك إنسانًا تعيسًا فاقدًا للروح والمثل والقيم التي تضبط مسيرته وتعينه على مواجهة الحياة.

يقول ألكسيس كارل في كتابه: (الإنسان ذلك المجهول):

(إن الحضارة العصرية لا تلائم الإنسان كإنسان. وعلى الرغم من إنها أنشئت بمجهوداتنا إلا إنها غير صالحة...) [3].

وهذه شهادة من أحد أبناء هذه الحضارة على قصور هذه الحضارة. ثم يضيف

(1) توينبي، أرنولد توماس: بحث في التاريخ، ترجمة طه باقر، بغداد، 155/4.
(2) ترجمة د. فيصل السامر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة الكتب المترجمة، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، 1984م، بغداد.
(3) ترجمة شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، 1974م، ص37 .

كاريل: (إننا قوم تعساء لأننا نتخبط أخلاقيًا وعقليًا...) [1]فقد سببت الحضارة الغربية للإنسان الغربي التعاسة والشقاء لأن هذا الإنسان بدأ ينحط أخلاقيًا وعقليًا.

ويعرض كاريل حالة تتقاطع مع معظم المفاهيم السائدة اليوم عن فكرة التقدم والرقي وهي:

(إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة ذروة النمو والتقدم هي الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى الهمجية والوحشية أسرع من سواها) [2].

وهذه مفارقة غريبة، فالخوف دائمًا على الجماعات والأمم الضعيفة من الانحلال والانهيار وليس على الأمم المتقدمة، مما يدل على عقم مظاهر التقدم التي تبدو على قسمات وجه الحضارة الغربية.

ويمضي كاريل في تبيان مراكز الضعف في الحضارة الغربية فيقول: (إن المادية البربرية التي تتسم بها حضارتنا لا تقاوم السمو العاطفي فحسب، بل إنها تسحق أيضًا الشخص العاطفي واللطيف والضعيف، فأولئك يحبون الجمال ويبحثون عن أشياء غير المال) [3].

وهناك دعوة صريحة يطلقها كاريل لأبناء حضارته بضرورة تحررهم من أغلالها: (ومن الضروري أن يحرر الفرد منذ نعومة أظافره من مذاهب الحضارة الصناعية والمبادئ التي يرتكز عليها كيان المجتمع الصناعي) [4].. وبعد تحرر الفرد من قيود حضارته، فإن كاريل يقترح: (يجب علينا أن نعيد إنشاء الإنسان من جديد في تمام

(1) الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، ص 41.
(2) نفسه.
(3) نفسه، ص 355.
(4) نفسه، ص324.

شخصيته، الإنسان الذي أضعفته الحياة العصرية) [1].

إن الحضارة الغربية خيبت آمال الإنسانية، ولم تستطع أن تلبي لها احتياجاتها الإنسانية، ولم يحالفها الحظ في إنجاب رجال قادرين على قيادتها عبر الطرق الملتوية التي تتعثر فيها هذه الحضارة:

(ونحن ندرك أنه بالرغم من الآمال العريضة التي وضعتها الإنسانية في الحضارة الغربية فقد أخفقت هذه الحضارة في إيجاد رجال على حظ من الذكاء والجرأة يقودونها عبر الطريق الخطر الذي تتعثر فيه) [2].

إن الحضارة الغربية تعاني من أمراض خطيرة تنخر في جسدها، ومرد هذه الأمراض جميعًا نظرتها المادية المفارقة للمنهج الإلهي والمتقاطعة مع مقاصد الله سبحانه وتعالى في الحياة البشرية، والغريب أن هذه الحضارة على علم بأوجاعها، يقول كاريل: (لأول مرة في تاريخ الإنسانية تستطيع حضارة متداعية أن تميز أسباب انحلالها، ولأول مرة تجد مثل هذه الحضارة قوة العلم الهائلة تحت تصرفها) [3].

ولم يكن كاريل وحيدًا بين المفكرين الغربيين الذين شخصوا الأدواء التي تشكو منها حضارتهم، فقد عبر الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في أول خطاب له بعد انتخابه رئيسًا للولايات المتحدة، عن عمق الأزمة التي تعيشها بلاده، يقول: (إننا نجد أنفسنا أثرياء في البضائع ولكن ممزقين في الروح ونصل بدقة رائعة إلى القمر، أما على الأرض فنتخبط في متاهات ومتاعب كثيرة) [4].

وهكذا فالحضارة الغربية بضائع، كما يصفها رئيس أكبر دولة في العالم وممثل

(1) الإنسان ذلك المجهول، ترجمة شفيق أسعد فريد، ص353.
(2) نفسه، ص 35.
(3) نفسه، ص 359.
(4) الأميري، عمر بها الدين: الإسلام وأزمة الحضارة في ضوء الفقه الحضاري، مؤسسة الشرق للنشر والترجمة، ط1، 1983م، ص22.

أكبر دولة لهذه الحضارة المادية. وهذه إحدى أكبر أزمات هذه الحضارة، لقد فارقت الروح وتمسكت بالمادة وتعلقت بها دون انفكاك، الأمر الذي تركها خاوية بلا روح وبلا مبادئ تكبح جماح شهواتها ورغباتها التي ليست لها حدود.

أما الرئيس الفرنسي الأسبق الجنرال شارل ديجول فهو يشخص معاناة الحضارة الغربية وأزماتها الراهنة بطريقة تدل على نفاذ الرؤية وعمق البصيرة، يقول ديجول:

(إن مجتمعاتنا الأوروبية فقدت شيئًا ثمينًا جدًا تحت وطأة تقدمها الضخم، ألا وهو (الإنسانية)، وأعني بها القيم الروحية البشرية العليا. فقد قطعت حضارتنا تلك الصلة المعنوية التي تربط البشر بعضهم ببعض. لقد جف شعورنا وتجمدت قيمنا الأخلاقية وانحلت) [1].

وهكذا تكون أزمة الحضارة المعاصرة أزمة روحية وأخلاقية، فقد كان تنكرها لأي هدف روحي في الحياة أفقدها نضارتها الإنسانية فالتصقت بالأرض وفارقت السماء، وأصبح معبودها الحقيقي المال والقوة التي تحافظ على استمرار الحصول على المال وحمايته، لقد أصبحت فلسفتها الحقيقية المعاصرة الرغبة في القوة، وهذه هي إحدى موروثات المدنية الرومانية القديمة[2].

لقد ارتكبت الحضارة الغربية خطأ مهلكًا قادها وسيستمر يقودها إلى الدمار والتحلل والانهيار عندما تنكرت لله سبحانه وتعالى وجحدته فنحته جانبًا عن حياتها، وصاغت نظمها ومشاريعها وحلولها وبرامجها بعيدًا عن مقاصد الله جلت قدرته في الحياة الإنسانية.

لقد سيطر على الحضارة الغربية في أوج نشاطاتها وفاعلياتها اعتبارات

(1) الأميري، الإسلام وأزمة الحضارة، ص 21 .

(2) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت (د.ت.) ص35.

من الانتفاع العملي (المادي) دون أن يصاحب ذلك أية ومضة روحية أو أدبية. أما قضية معنى الحياة والغاية منها فقد افتقدت في نظر الغربي الحديث جميع أهميتها العملية[1].

إن النظرة المادية التي ميزت الإنسان المعاصر، وخاصة أبناء الحضارة الغربية، أدت إلى عجز الإنسان عن أن يتوحد مع ذاته. فصارت تسحقه المتناقضات كما يرى دعاة الوجودية، وذلك كله راجع إلى عدم التناسق والتكامل والتوازن في حياة الإنسان المعاصر بين الجوانب الروحية والجوانب المادية. لقد كان طغيان الجانب المادي على حياة الإنسان مدمرًا ومنذرًا بوقوع كارثة إنسانية كبرى قد تقوض جميع منجزاته الحضارية[2].

إن الفراغ الروحي الذي تعيشه الحضارة الغربية جعلها غير قادرة أحيانًا على التمييز بين النافع والمفيد وبين غير النافع وغير المفيد. فقد أصبحت كل دعوة وإن كانت تافهة تلقى قبولاً وتجد لها الأتباع من بين أبناء هذه الحضارة حتى من جاء من الهند يبشر بالضحك في الحياة، والضحك فقط، وجد له أتباعًا ومريدين[3].

إن الحضارة الغربية تعيش أزمة ضمير أفرزت خواء أخلاقيًا وانقطاعًا اجتماعيًا ونفسيًا. فتجد المراهق يهرع إلى الـ (**L-S-D**) وغيره من المخدرات التي تسبب الحالة المرضية المسببة للهلوسة، ورب الأسرة الذي يقضي ساعات طويلة لمشاهدة التلفزيون الذي يعرض أفلامًا تخيلية، والهيبي الرافض لمعطيات حضارته والباحث عن الفردوس في عالم الطبيعة، والمراهق الذي يجد نفسه ثائرًا ومتوترًا فيبادر إلى تحطيم النوافذ وتهشيم زجاج السيارات، والمخمور الذي يجد مهربًا من قسوة الحياة في معاقرته للخمر

(1) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ص32.
(2) أنور الجندي، معلمة الإسلام، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ص1، 1989م، 127/1.
(3) شوقي أبو خليل، الحضارة الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط1، 1994م، ص 591.

إلى حد الضياع، وربة البيت المرهقة بسبب أعبائها المنزلية، أو التي تعاني من الاغتراب، تجد خلاصها على سرير الصحة العقلية، هؤلاء جميعًا ضحايا القلق والشعور بعدم الأمان ومرض العصاب، وأن غضبهم كاسحًا بحيث يمكن أن يتحول إلى عجز وتخاذل في وجه مستقبل لا يتفهمونه ولا يستطيعون التحكم فيه[1].

لقد حدد كاميليري عوامل أزمة الحضارة الغربية وشخص حالة الاضطراب والقلق اللذين ينخران في جسدها، فهناك: اختلال التوازن النفسي- الاجتماعي، واختلال التوازن البنيوي، واختلال التوازن البيئي، وأزمة الطاقة وأزمة الأمن.

فاختلال التوازن النفسي والاجتماعي جعل شخصية الإنسان مغمورة بقيمته في التبادل في مجتمع معقد تحكمه قوى السوق، فأصبح الفرد لا يمتلك إحساسًا بالذات ولا هوية خاصة ولا كرامة شخصية، وليس الفرد في نظم الاقتصاد الجماعي (الشيوعية والاشتراكية) بأحسن حال من نظيره في النظم الرأسمالية إذ ليست له قيمة إلا بقدر ما يسهم به ماديًا من أجل تحقيق أهداف الخطط الاقتصادية للدولة[2].

وكذلك الاختلالات البنيوية والبيئية وتشوش الاقتصاد العالمي، وسباق التسلح الذي يتطلب إنفاقًيا عسكريًا متزايدًا، وأنه في المحصلة النهائية يفرز حدة الأزمة النفسية الناتجة عن عدم توفر الأمن القومي للقوى المتسابقة في هذا الميدان[3]. لقد وجد كاميليري في كل ظاهرة وقع عليها نظره في الغرب أزمة وفوضى اجتماعية يدركها الغربي ولكنه لا يستطيع معالجتها. فهناك استمرار في الإنتاج المفرط للبضائع على الصعيد الاقتصادي، وهناك ارتفاع في كلف الإنفاق العسكري والتسلح، وهناك

(1) جوزيف، أ.كاميليري، أزمة الحضارة، ترجمة: د. فيصل السامر، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، بغداد، 1984، ص26.

(2) نفسه، ص 44.

(3) نفسه، ص 27، 37، 90، 92.

إفراط في الاستهلاك المحلي، وهناك تشوش في خطط التعليم. ولهذا فقد اعتبر كاميليري التنظيم الاقتصادي والسياسي للدولة القومية سواء في المجتمعات المتطورة أو الناقصة النمو إنما هو في حالة تفسخ[1].

إن الأزمة التي يتحدث عنها كاميليري هي أزمة عالمية، وأن الغرب قطبها، وهي أزمة تهدد مباشرة أرواح رجال ونساء لا حصر لهم، ومع ذلك فإن خطورتها تكمن (في أنها تنفذ إلى بنية العلاقات الإنسانية كلها وتفسدها)[2].

إن الإنسان يعاني من القهر الذي فرضته عليه القوة الساحقة للمجتمع التكنولوجي.. إن الطلب المستمر والمتزايد على النمو، والتسريع في عمليات الإنتاج ومستوياته، والذي بدوره يؤدي إلى ضرورة التوسع المستمر في معدل الاستهلاك، قد أصبح بفضل صناعة الإعلان المعقدة الهدف النهائي الذي ينظم حوله كل الكدح البشري. فلم يعد العمل وسيلة لتطوير الفرد أو إثرائه ثقافيًا، بل غدا عاملاً ثانويًا في نظام تقني يقوم بمهمته مع اهتمام ضئيل بالغايات الإنسانية أو الخلاص الأخلاقي[3].

إن التقدم العلمي الذي بلغته الحضارة الغربية وقدرتها على الوصول إلى القمر وأقمارها الصناعية ومحطاتها الفضائية التي أقامتها في الفضاء الخارجي وثورة الاتصالات التي نجحت بتقريب العالم بعضه من بعض، ينبغي أن لا يعشي أبصارنا بريقها، بل لا يجوز أن تلهينا عن الدرك الذي ينحدر إليه الإنسان ومقوماته الإنسانية[4].

إن خواء الحضارة الغربية الروحي، بمختلف مذاهبها وأنظمتها، هذا الخواء تختنق

(1) جوزيف، أ.كاميليري، أزمة الحضارة، ص29.
(2) نفسه، ص 31.
(3) نفسه، ص 25-26.
(4) سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، مكتبة وهبة، مطبعة الاستقلال الكبرى (د.ت.)، ص 64.

فيه روح الإنسان، وتهدر فيه كرامة الإنسان وقيمته، بينما تتكدس البضائع والسلع التي أنتجتها ماكنة التكنولوجيا المتطورة وتطغى على كل قيمة للإنسان[1]:

ولنا أن نتساءل: ما هي العوامل الكامنة وراء هذا الخواء الروحي؟ ولماذا غرقت هذه الحضارة بمستنقع الماديات التي أوصلتها إلى ما أوصلتها إليه من اختناقات وأزمات؟

والجواب على ذلك: يكمن في النزوع البشري إلى حب المال والنساء والذهب والفضة والزروع وكل مقومات الثراء الأخرى، يقول تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (آل عمران:14).

لقد تعلقت الحضارة الغربية في حرصها على جمع المال واحتكاره وتنميته واستثماره بطرق بعضها لا تكون مشروعة كالربا والاحتكار، فأدارت ظهرها للمنهج الإلهي الذي ينظم العلاقة تنظيمًا دقيقًا بين المال وبين طرق امتلاكه، ويضع الضوابط الكفيلة بإعادة توزيعه توزيعًا يكاد يحقق الكفاية للمعوزين والفقراء، وينظم العلاقة الجنسية ويقتصرها على الزواج المشروع فيبعد الفاحشة والبغاء عن المجتمع ويجنبه الأمراض الاجتماعية والجنسية.

وعندما يتجه الناس بكل طاقاتهم وقدراتهم وإمكاناتهم إلى المال يجمعونه ويتزيدون منه دون أداء حق الفقراء عليهم ودون مراعاة للوسيلة والطريقة التي يحصلون بها عليه، عندئذ يكون المال وجمعه غاية لا وسيلة، وعندئذ تتراجع جميع المبادئ والمثل والقيم سماوية واجتماعية أمام آلة المال العاتي، الذي أصبح يحرك النزوات والرغبات التي ليست لها حدود في الاستزادة من الأموال. وصارت الحروب

(1) سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، ص64.

تشن ويصرع فيها الأبرياء بين القوى المتسلطة في العالم من أجل ضمان استمرار امتلاء جيوب الرأسماليين وخزائنهم بالأموال، وصار الأمن العالمي مهددًا بالأخطار التي تنذر بالدمار الشامل لكل منجزات الإنسان الحضارية عندما يشعر أحد الأطراف أن مصالحه مهددة بالبلد الفلاني أو أن مراكز نفوذه في الدولة الفلانية مهددة من قبل قوة أخرى.

وهكذا فإن نهضة أوروبا منذ عصر النهضة مرورًا بالثورة الصناعية قد قامت على المال، والمال وحده، بعيدًا عن أية اعتبارات دينية أو خلقية، ولهذا الحرص على المال قادت أوروبا أكبر حركة استعمارية منذ القرن التاسع عشر سيطرت بها على معظم الشعوب في أفريقيا وآسيا ونهبت ثرواتها، وحولت هذه البلدان إلى أسواق لبضائعها ومنتجاتها الأمر الذي زاد من ثرائها، فازدادت تسلطًا على غيرها.. ونظرًا لتصادم المصالح، فقد أغرقت الحضارة الغربية العالم في حربين عالميتين راح ضحيتها الملايين من البشر عدا المشوهين والمعاقين. وكل ذلك قدم على مذبح إله المال الذي عبدته أوروبا.

لقد بدأ التفكك والاضطراب والجريمة تنخر في جسد هذه الحضارة المادية التي غرقت في حب المال حتى أذنيها، وعارضت بذلك المنهج الإلهي وخالفته، ولم تر لها إلهاً غير إله المال والشهوة فأفسدت بذلك حياتها واضطربت أحوالها وشاعت الجريمة في مجتمعاتها.

ففي الولايات المتحدة وحدها تحدث جريمة قتل واحدة كل 24 دقيقة. ويجري كل عشر ثوان اقتحام منزل وسرقته، ويوجد من السلاح المعروض للبيع الحر: مسدس لكل أربعة من الأمريكيين، وتباع قطعة سلاح فتاك كل 13 ثانية. أما الاختطاف والإجهاض والانتحار والإدمان والشذوذ الجنسي فذلك منه الكثير الكثير[1].

(1) الأميري، الإسلام وأزمة الحضارة، ص 29.

ومن المخاطر الجدية اليوم التي تواجه بنية هذه الحضارة انتقال ظاهرة الجريمة إلى صفوف الأطفال اليافعين، فقد تناقلت وكالات الأنباء والمحطات الفضائية أنباء ارتكاب جريمتين من قبل طفلين جلبا السلاح، كل إلى مدرسته، وبأوقات متفاوتة، وقتل كل منهم عددًا من زملائه في المدرسة. وذلك كله نتيجة الفراغ الروحي الذي تعيشه الأسرة الأمريكية.

أما موقع المرأة في الحضارة الغربية، فإنه يعد الوجه الآخر لأزمة الحضارة الغربية.

في معظم الحضارات نظرت المجتمعات المختلفة إلى الأخلاق نظرة ربطتها بالجنس أو القضية الجنسية[1]. فعند شيوع حالة من الانضباط الذي ينظم العلاقة بين المرأة والرجل وفق قوانين ونظم وأعراف المجتمع بعيدًا عن الفحشاء والخنى فتكون عندئذ الأخلاق في مثل هذا المجتمع سليمة وقويمة وعالية أو هكذا توصف. وعند حدوث العكس، وذلك بشيوع العلاقات غير الشرعية والسقوط في مهاوي الرذيلة والفحشاء، فعندئذ يوصف المجتمع بأنه يفتقد إلى الأخلاق القويمة.

ويبدو أن الناس كانوا محقين في ذلك، فالعلاقة الجنسية تعتبر أساس الأخلاق، إذ لا أخلاق -بمفهومها الواسع- إذا انحرف الناس في شؤون الجنس، وأن الذين ينحرفون عن شؤون الجنس لا يمكن على المدى البعيد أن تظل لهم أخلاق[2].

لقد أصبحت المرأة في ظل الحضارة الغربية المستنقع الذي يفسد الحياة الغربية، ومن ثم ينسحب ذلك إلى إفساد الحياة الإنسانية، وذلك بحكم هيمنة الحضارة الغربية وتأثيراتها على الأمم والشعوب الأخرى[3].

(1) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، دار الشروق، ص 251.
(2) نفسه.
(3) د. عبد الحليم عويس، تفسير التاريخ.. علم إسلامي، دار الصحوة، القاهرة، مطبعة المدينة، (د.ت.)، ص 268.

لقد كانت قسوة الحضارة اللادينية شديدة على المرأة، فأصبحت بحكم تكوينها الفطري لا تستطيع المقاومة والصمود، وبذلك فقد أصبحت دمية رخيصة بيد الرجل يتلذذ ويتاجر بها، ويعطيها فتات موائده، ويعاملها كأي سلعة رخيصة لا كرامة لها[1].

لقد سلخت الحضارة الغربية جانبًا مهمًا من جوانب إنسانية المرأة، وبدأت تعاملها كسلعة وبضاعة تجني من ورائها ملايين الدولارات.

ففي الولايات المتحدة وحدها هناك 200 شركة جنسية تتخذ من المرأة بضاعتها وبصور متعددة، وتجني من ورائها الكثير من الأرباح، حتى أن الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون علق على ذلك قائلاً: إن أرباح التجارة بالمرأة قد عادت على أصحابها بأكثر من مليار دولار عام1972م[2].

أما المكتبات التي تعنى بشؤون الجنس، فقد أخذت على عاتقها عرض الكتب والمجلات التي تضم عروضًا وصورًا للعملية الجنسية بهدف تحقيق الأرباح الطائلة، ففي واشنطن العاصمة هناك 23 مكتبة تعرض بضاعتها المسمومة بطريقة تعرق الجبين حياءً. وما تعرضه مكتبات شيكاغو ولوس أنجلوس ونيويورك أكثر بكثير مما تعرضه مكتبات واشنطن، إضافة إلى وجود الكثير من دور العرض الخاصة والمشاهد الحية للعملية الجنسية وأفلام الشذوذ الجنسي تعرض جميعًا بأسعار رخيصة لكثرة دور العرض المتنافسة[3].

وهكذا تتحول البنت والأخت والزوجة وربما الأم أيضًا، إلى بضاعة مثلها مثل كل البضائع المطروحة، فلا يبدو منها إلا ظلالها ويضيع بذلك دورها الريادي في بناء الأسرة وتنشئة الأجيال.

(1) د. عبد الحليم عويس، تفسير التاريخ، ص268.
(2) نفسه.
(3) نفسه.

لقد أصبحت الرذيلة الجنسية إحدى مظاهر الحياة الغربية، بل إنها سارت معها حيث سارت، فنجد الكثير من الشعوب التي تأثرت بقشور الحضارة الغربية قد تفشت فيها ظاهرة التحلل الجنسي، فشاعت الرذيلة بمقدار تأثر ذلك البلد بحضارة أوروبا، أو بعبارة أدق بحضارة الغرب.

جاء في إحصائية لشرطة نيويورك أن عدد البغايا فيها هو (25 ألف) تستهلك الواحدة منهن من المخدرات يوميًا بحوالي (50) دولارًا[1]. وهذا ناهيك عن الخليلات والعشيقات، فهؤلاء لا يدخلن ضمن الإحصائية لأنهن لا يتقاضين أجورًا على سقوطهن.

وفي نيويورك أيضًا يوجد أغرب مجمع في العالم يضم أعضاءً من مختلف الولايات المتحدة يقدر عددهم بـ (15مليونًا) هم المنحرفون جنسيًا[2]. وهذا مما يدلل على حالة التحلل والتفسخ والانهيار الأخلاقي الذي أصبح سمة لهذه الحضارة.

وتقف المرأة في أوضاع مزرية أخرى في كنف هذه الحضارة اللادينية، فلم تعد بضاعة للمتاجرة بجسدها على صفحات الكتب والمجلات أو بعروض الأفلام الجنسية أو بالمشاهد الحية في اللقاءات المحرمة، وإنما أصبحت وسيلة قانونية ودولية للمزايدات السياسية والتجارية، فظهرت أجهزة خاصة تنتمي إلى قوى دولية كبرى صارت تستخدم النساء عبر أخطر جهاز عالمي وهو هيئة الأمم المتحدة في عرض أجسادهن بطريقة دبلوماسية تتخذ أشكالاً مختلفة من أجل اصطياد الرجال (المهمين) في العالم وسرقة الأسرار الدولية المطلوبة عن طريق الجسد الجميل[3].

لقد أصبحت المرأة في ظل الحضارة الغربية وسيلة للتجارة وتحقيق الأرباح فهي في المحلات التجارية والشركات، وصناعة الإعلان والدعاية وسيلة لجلب الزبائن، وهي مطلوبة كسكرتيرة خاصة يشترطون فيها قدرًا كبيرًا من الجمال والأناقة، وهي في

(1) د. عبد الحليم عويس، تفسير التاريخ، ص268.
(2) نفسه، ص 269.
(3) نفسه.

السينما والتلفزيون والراديو والمجلة والصحيفة والقصة تعتمد على جمال جسدها وأناقتها، الذين يتفننون في إبرازه وتجسيمه، والذي يعد أهم وسيلة للاتجار والكسب والحصول على الملايين[1].

عطاء الإسلام لأزمة الحضارة

والآن وبعد أن عرضنا جانبًا من أزمة الحضارة الغربية في المال والجنس، هل بإمكان حضارتنا أن تمد يد العون لهذه الحضارة البائسة؟ أو بعبارة أخرى ماذا يستطيع الإسلام أن يقدم لهذه الحضارة في محنتها وتوالي أزماتها؟

1- على الصعيد المالي:

نحن نعلم بأن الربا والاحتكار كانا وراء تمكن الرأسمالية من تجميع الثروات والاستزادة منها، وحرمان سائر الناس من تلك المردودات الضخمة التي تجنى من تلك الاستثمارات[2].

ومن هنا فإن النظام الرأسمالي القائم على الربا والاحتكار يتقاطع مع المنهج الإسلامي الذي يحرم الربا والاحتكار، لكونهما وسائل غير مشروعة لاستثمار المال، وهكذا فإن الإسلام سيحرم الرأسمالي الجشع من ربح كثير مصدره الربا والاحتكار، وهذا ليس لأن الإسلام يرفض استثمار المال أبدًا ولكن لأن الربا والاحتكار لا يمثلان جهدًا حقيقيًا للمالك، ولا دورًا اجتماعيًا إيجابيًا للمال في المجتمع، في حين أن المذهب الاقتصادي الإسلامي يعمل على تنمية الإنتاج وتثميره واستثمار موارده الطبيعية واستغلالها بما ينفع الفرد والجماعة، غير أن ذلك لا يعني أن يكون هدف الإنتاج هو تجميع الأموال وتكديسها. فالمذهب الاقتصادي الإسلامي لا يرى في الإنتاج

(1) د. عبد الحليم عويس، تفسير التاريخ، ص269.
(2) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص 231.

وما يقوم به من إنتاج سلع وخدمات إلا كونه وسيلة لخدمة الإنسان وترقيته ماديًا وروحيًا، ليستطيع القيام بما كلفه به الله تعالى من مهام الاستخلاف في الأرض[1].

والمال على هذا الأساس وسيلة لا غاية.. وسيلة تمكن الإنسان من عبادة الله سبحانه وتعالى على أفضل الوجوه يقول ابن تيمية رحمه الله:

(إن الله خلق الخلق لعبادته، وخلق لهم الأموال ليستعينوا بها على عبادته) [2]

والغرض من المال في المذهب الاقتصادي الإسلامي -كما نرى- غير الغرض منه في قوانين الإنتاج الاقتصادية في الغرب. فبينما يكون الهدف منه في النظام الأخير إحداث الرفاهية لمالكه وامتلاك السطوة والاستكثار منه، استجابة الدوافع الأنانية في وابتعادًا عن النظرة الأخلاقية، نجد أن هدف الإنتاج في المذهب الاقتصادي الإسلامي غلبة الجانب الأخلاقي، واعتبار المال الناتج عن الإنتاج وسيلة تعبدية يتعبد بها المسلم إلى الله[3].

كذلك فإن الإسلام، أي نظام الإسلام الاقتصادي لا يقوم فقط على زيادة الإنتاج، وهو هدف الإنتاج في الأنظمة الرأسمالية، وإنما يستلزم في نفس الوقت عدالة التوزيع، وهو الشيء المفقود في الحضارة الغربية، ومن ثم فإن الإسلام يرفض أية تنمية رأسمالية تستهدف تنمية الثروة القومية دون النظر إلى توزيع عادل لهذه الثروة[4].

كذلك فإن المسلم الغني وصاحب العمل ومن يمتلك وسائل الإنتاج والمصانع والمزارع قد فرض الله عليه مقدارًا محددًا من المال كزكاة لأمواله، يدفعها إلى الفقراء والمعوزين، وقد اعتبرها الإسلام حقًا لهؤلاء الفقراء في أموال إخوانهم الأغنياء، وهي

(1) أحمد عواد الكبيسي، الحاجات الاقتصادية في المذهب الاقتصادي الإسلامي، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1987م، ص 197.
(2) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، نقلاً عن الكبيسي، الحاجات الاقتصادية، ص 197.
(3) أحمد عواد الكبيسي، الحاجات الاقتصادية، ص 198.
(4) نفسه.

ليست منة من الآخرين، بل هي واجب وحق. يقول تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:60).

وبذلك يتفوق المذهب الاقتصادي الإسلامي على المذهي الرأسمالي. كما أن الإنتاج في المذهب الرأسمالي يهدف إلى الاستفادة من الطلب في السوق كي يحقق أكبر قدر من الربح دون أن يكون هدفه إشباع الحاجات، فهو إنتاج طلب لا إنتاج حاجات، أما في المذهب الماركسي فهو وإن كان يتجه بالإنتاج لغرض إشباع الحاجات غير أنه يتخلى عن شخصية الإنسان الروحية ومتطلباتها لمقتضيات الحاجات المادية[1].

وهكذا يتفوق المذهب الاقتصادي الإسلامي على المذاهب الاقتصادية الوضعية وخصوصًا الرأسمالية في:

1- تحريمه للربا والاحتكار كمصدرين من مصادر الاستغلال للآخرين.

2- أن الإسلام رغم أنه يسعى إلى زيادة الإنتاج، لكنه يحرص على عدالة التوزيع، وهو أمر مفقود في النظام الرأسمالي.

3- أن الإسلام بتشريعه للزكاة ساعد على انتقال الأموال والبضائع وغيرها من مالكيها الأغنياء إلى المحتاجين من الفقراء والمعوزين، وبذلك فإن الإسلام خفف من وقع الحاجة على الفقراء والمعوزين، وهذا ما يفتقده النظام الرأسمالي.

4- أن طبيعة الإنتاج في مذهب الاقتصاد الإسلامي هو لإشباع الحاجات الإنسانية، في حين أن الإنتاج في النظام الرأسمالي هو إنتاج طلب متزايد في السوق مما يجعله حريصًا على تحقيق أعلى نسب للأرباح.

(1) أحمد عواد محمد الكبيسي، الحاجات الاقتصادية، ص 200.

وبهذا فإن الإسلام يستطيع أن يساعد في حل أزمة الحضارة الغربية، عندما يصبح أبناء هذه الحضارة متحررين من عقدهم في معاداة الإسلام، وعندما ينظروا بموضوعية إلى منهج الإسلام في الحياة، والذي هو منهج إلهي أراده الله تعالى واختاره للبشرية جميعًا، وهو منهج صالح في كل زمان ومكان، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(الأنبياء:107)، وكونه ﷺ قد بُعث رحمة للعالمين فذلك يعني أن دينه كان زمن بعثته رحمة لمن بعث فيهم ومن عاصرهم، وهذه الرحمة مستمرة إلى يوم القيامة، لأن دينه دين خير ولا يمكن للخير أن يكون صالحًا في زمن وغير صالح في زمن آخر.

كما أن الإحباطات والمآزق والأزمات التي تحيط بالنظم الوضعية، وبمثلتها الحضارة الغربية، يعد أكبر دليل على قصور هذه الأنظمة أمام المنهج الإلهي الذي اختاره الله سبحانه وتعالى للعالمين.

2- مشكلة الجنس وأزمة الحضارة المعاصرة:

فيما مضى من السطور وقفنا على بعض الشواهد التي دللت على مهانة المرأة في خضم حضارة مادية طاغية، ونظرة الرجل إليها، ونظرة المؤسسات التي تهدف إلى الربح على أنها سلعة يمكن أن يتحقق عن طريقها الربح الوفير.

أما نظرة الإسلام للمرأة، فقد رفع مكانتها وانتشلها من المهانة التي تلفها في معظم الحضارات السابقة للإسلام والمعاصرة له، وجعلها على قدم المساواة مع الرجل في الحقوق والواجبات، كما اعتبرها مكملة للرجل وهو مكمل لها، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾(الحجرات:13)، كذلك فقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في العمل والمسؤولية أمام الله والثواب والعقاب، يقول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ

أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ ﴾ (آل عمران:195). وهكذا فإن المساواة متحققة جنائيًا وعقائديًا وفعليًا على صعيد العمل والمسؤولية التي تترتب عليه. فالرجل والمرأة متكافئان في الحقوق والواجبات في الإسلام، ولكنهما ليسا متشابهين في التكوين النفسي والجسمي[1].

وبهذا فإن الإسلام يتقاطع في نظرته للمرأة مع اليهودية استنادًا إلى توراتها المتداولة، فقد جاء في معجم الفلسفة الفرنسي:

(إن القرآن يختلف عن التوراة في أنه لا يجعل ضعف المرأة عقابًا إلهيًا كما ورد في سفر التكوين (16/3)، ومن الخلط أن ينسب إلى شارع عظيم كمحمد [ﷺ] مثل تلك المعاملة المنكرة للنساء، والحقيقة هي أن القرآن يقول: ﴿ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ (النساء:19)[2].

أما الحضارة الغربية فقد نظرت للمرأة نظرة متاع يورث، بينما نفى عنها الإسلام صفة المتاع وضمن لها حقها في الإرث الذي يتركه الأبوان أو الإخوة أو الأقرباء يقول الله عز وجل: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ ﴾ (النساء:7).

وعندما حرم الإسلام الفاحشة والبغاء فإنه حفظ للمرأة مكانة أسمى، فأبعدها عن أن تكون متعة رخيصة بيد الرجل يلهو بها ثم يتركها إلى غيرها وغيرها...

والإسلام أيضًا بتحريمه للفاحشة ومقاومته لها، وصيانة المجتمع وحمايته منها فإنه يفعل ذلك لأنها تهبط بكيان الإنسان عن المستوى اللائق به كإنسان، ومن ثم فهي تخالف الأخلاق بالمفهوم الواسع للأخلاق[3].

(1) أنور الجندي، معلمة الإسلام، 267/1.
(2) نفسه، ص 264.
(3) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص 254.

ولما كان الإنسان هو خليفة الله في الأرض فإن اندفاع الإنسان وراء شهواته المسعورة وغرائزه يتناقض مع هذه المهمة المقدسة، كما أن هذا الاندفاع دون ضبط وتحديد وتنظيم يجعل الإنسان لا يتميز كثيرًا عن الحيوان[1].

والله سبحانه وتعالى عندما حرم الفاحشة على عباده لم يحرمها كي يضيق عليهم في حياتهم، ولكن ليطهرهم وليرفعهم إلى مصاف الإنسان الذي كرمه على كثير ممن خلق ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء:70) [2].

والإسلام لا يقر الرهبانية ولا يتنكر لرغبات الإنسان وميوله الفطرية، ولكنه يعمل على تهذيب وتنظيم وتحديد مشروعية الوصول لها، وإشباعها وفق المنهج الذي جاء به من الله المصطفى ﷺ.

وهكذا فإن الإسلام يعالج المشكلة الجنسية بواسطة:

الزواج المشروع الذي جعله السبيل إلى التحصن من الوقوع بالفاحشة، وتجنب مخاطرها الاجتماعية والصحية. ولهذا فإنه عمل ما في وسعه على تيسيره والتشجيع عليه اقتصاديًا واجتماعيًا وفكريًا وروحيًا، وجعله عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله، يقول الله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ... ﴾(النساء:3)، وهذا أمر من الله للعباد بالزواج الذي يحفظ للرجل والمرأة كرامتهما ويصونهما من السقوط.

وفي قصة الثلاثة الذين جاءوا بيوت أزواج النبي ﷺ وسألوا عن عبادته فاستقالوها، فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا؛ وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر؛ وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «**أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي**

(1) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص 254-255.
(2) نفسه، ص255.

أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1].

إن الإسلام بتشجيعه للزواج فإنه يضمن للإنسان أشياء كثيرة:

فهو يضمن للإنسان راحة الأعصاب وراحة الضمير، ويضمن له الاستقرار، كما يضمن نمو الأسرة واستقرارها، ويضمن للأطفال التنشئة الصالحة في حضن الأسرة وما في هذا الحضن من الحب والود والرعاية التي يسبغها عليهم الأبوان، الأمر الذي يجنبهم الانحراف والشذوذ والخروج عن الآداب الاجتماعية في المستقبل[2].

ولقد عبرت مريم جميل، بعد دخولها الإسلام عن صون الإسلام ورعايته للمرأة بقولها: (إن على النساء المسلمات أن يعرفن نعمة الله عليهن بهذا الدين، الذي جاءت أحكامه وآدابه صائنة لحرماتهن، راعية لكرامتهن، محافظة على عفافهن وحياتهن من الانتهاك وضياع الأسرة) [3].

وهكذا فإن الضمانات التي يوفرها الإسلام للمرأة يجعلها بمنأى عن كل ما يحاول جرح كرامتها ويحولها إلى متعة رخيصة بيد الرجال. ولقد عانت وتعاني الحضارة الغربية من جراء هذا الانفلات للعلاقات المحرمة بين أبنائها، فقد أخذت تدفع أثمانًا باهظة، فأصبح الإيدز الهاجس المرعب لأبناء هذه الحضارة، كما أن شيوع الأمراض الجنسية الأخرى يبدد أي شعور بالمتعة التي لا يمكن أن تتحقق إلا في عش الزوجية النقي الدافئ الطاهر.. وهكذا فإن الحضارة الغربية، بل البشرية هو أحوج ما تكون اليوم للإسلام، لأنه المنهج الوحيد القادر على انتشالها من وهدتها، والتشريع الذي جاء لإسعاد البشرية في الدنيا والآخرة.

ولقد تنبه إلى أهمية الإسلام وقدرته على حل ومعالجة أدق التعقيدات التي

(1) صحيح البخاري، دار القلم، بيروت، 1987م، 5/7/4.
(2) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص260-261.
(3) أنور الجندي، معلمة الإسلام، 275/1.

تتخلل بنيان الحضارة الغربية المعاصرة عدد من المفكرين الغربيين، مظهرين حاجة حضارتهم لهذا الدين وقدرته على العطاء والمساعدة في إيجاد الحلول لأزماتهم الحضارية، يقول الدكتور شيرل عميد كلية الحقوق بجامعة (فيينا) في مؤتمر الحقوقيين عام 1927م: (إن البشرية تفخر بانتساب رجل كمحمد إليها، إذ أنه رغم أميته فقد استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد الناس لو توصلنا إلى قمته بعد ألفي عام)[1]. وما نريد أن نقوله هو أننا نصحح للدكتور شيرل خطأه التاريخي، فالتشريع الإسلامي لم يأت به الرسول ﷺ من نفسه، وإنما نزل عليه من السماء، وهذا هو سر ديمومته وصلاحيته للحياة في كل زمان ومكان.. وأما العالم سانتلانا فإنه يقول عن الفقه الإسلامي: (إن الفقه الإسلامي يكفي المسلمين في تشريعهم المدني إن لم نقل إن في ذلك كفاء للإنسانية)[2].

أما المؤرخ البريطاني المعروف توينبي فيظهر حاجة الحضارة الغربية لظهور ديانة جامعة تأخذ عن الإسلام روح الأخوة الإنسانية[3].

ويقول هوكنج أستاذ الفلسفة في جامعة هارفرد: (إني أشعر بأني على حق حين أقدر أن الشريعة الإسلامية تحتوي على جميع المبادئ اللازمة للنهوض. وأن نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة وإصدار أحكام منسقة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية)[4].

أما الرئيس الفرنسي الأسبق شارل ديجول فقد أجاب على سؤال لإحدى الصحف الباريسية الكبرى عن سر تقديره للعالم الإسلامي، فقال: (أعتقد أن اتصالنا بالمجتمعات العربية والإسلامية التي حافظت على تلك الروح الإنسانية التي فقدناها

(1) أنور الجندي، معلمة الإسلام، ص 581.
(2) نفسه.
(3) الملاح، د. هاشم وآخرون، دراسات في فلسفة التاريخ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، الموصل، 1988م، ص 223.
(4) الجندي، معلمة الإسلام، 581/1.

سينقذنا من مغبات حضارتنا وسيكون مفيدًا لنا جدًا...)[1]، وهكذا فالسياسي العجوز ديغول يرى بثاقب فكره إمكانية مجيء الإنقاذ لأبناء الحضارة الغربية من الإسلام ومن المجتمعات الإسلامية التي يسود فيها الإسلام. فهل يتنبه المسلمون إلى خطورة هذه الشهادة؟

أما العالم الأسباني فيلاسبازا فإنه يرى: أن جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست أجدر من أمم الشرق المحتفظة بالثقافة العربية-الإسلامية، القائمة على إذاعتها، بوضع حد نهائي لتدهور الغرب المشؤوم الذي يجر الإنسانية إلى هوة التوحش والتسلط المادي)[2].

أما روجيه غارودي الذي درس الإسلام ثم دخل فيه وألف كتابًا اسمه (وعود الإسلام)، فقد نقد الحضارة الغربية نقدًا لاذعًا، مؤكدًا أن حضارة الإسلام هي التي تصلح لإرث الأرض، ولهذا سماها بـ (الإرث الثالث)، باعتبارها تتوسط بين حضارة الأقوياء (الغربية) وحضارة الضعفاء (العالم المتخلف).. وحضارة الإسلام مطلوبة للعب هذا الدور في رأيه لأنها: (توطد عقيدة التوحيد، وتوفق بين الإيمان والعلم، ولا تقيم حاجزًا ولا وسيطًا بين العبد وربه، وتحفظ كرامة الإنسان وما يحققها من العدل والحرية والشورى)[3].

أما مُحَمَّد أسد (ليوبولد فايس)، وهو من مفكري أوروبا الذين اعتنقوا الإسلام، فيقول: بأن (الإسلام استطاع أن يحصن نظامه الاجتماعي الذي ظل منيعًا ومتينًا؛ لأن تعاليم القرآن الكريم الدينية قد خلقت هذا الأساس المتين، وسنة الرسول ﷺ أصبحت

(1) الأميري، ص 21.
(2) الأميري، ص 21.
(3) نفسه، ص 24.

إطارًا من الفولاذ حول ذلك البناء الاجتماعي العظيم) [1].

وعليه، فإن الإسلام هو المنهج الذي يمتلك كل عناصر القوة التي تمكنه من اختناقات الحضارة الغربية وبربريتها، وبالتالي فإن المسلمين أصحاب المنهج الإسلامي هم الذين يمتلكون القدرة التي يستطيعون بها أن يثبوا الوثبة الكبرى لإنقاذ البشرية وإعادتها إلى منهج الله سبحانه وتعالى[2].

والإسلام في وثبته المرتقبة -بعون الله تعالى- الكبرى لا يهدف إلى تحطيم مظاهر الحضارة الصناعية أبدًا، بالعكس فإنه يحافظ عليها وينميها، ولكنه يعمد فقط إلى تغيير النظرة إلى هذه الحضارة بجعل الروح الإنسانية هي المسيطرة عليها، لا هي المسيطرة على الروح وتصورات الإنسان ومشاعره وأخلاقه[3].

وعندما يصبح الروح الإنساني المؤمن هو المهيمن وهو المسيطر على كل جانب من جوانب الحياة، بمختلف ميادينها واتجاهاتها، فعندئذ يصبح الإنسان متمتعًا بحريته في إطار عقيدته، قادرًا على الاختيار.. والاختيار هو العنصر المفقود في الحضارة الصناعية[4].

ونحن الآن نعيش حالة ترقب لإحداث تلك الوثبة الكبرى في حياة البشرية فتعيدها إلى المنهج الإلهي، فتستعيد البشرية بذلك إنسانيتها وحريتها وطهرها ونقاءها ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾(البقرة:138)، ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ

(1) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ص 37.
(2) سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، ص 106.
(3) نفسه، ص 106-107.
(4) نفسه، ص 107.

وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام:153).

والله ولينا في الحياة الدنيا والآخرة، وهو نعم الولي ونعم النصير.